المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

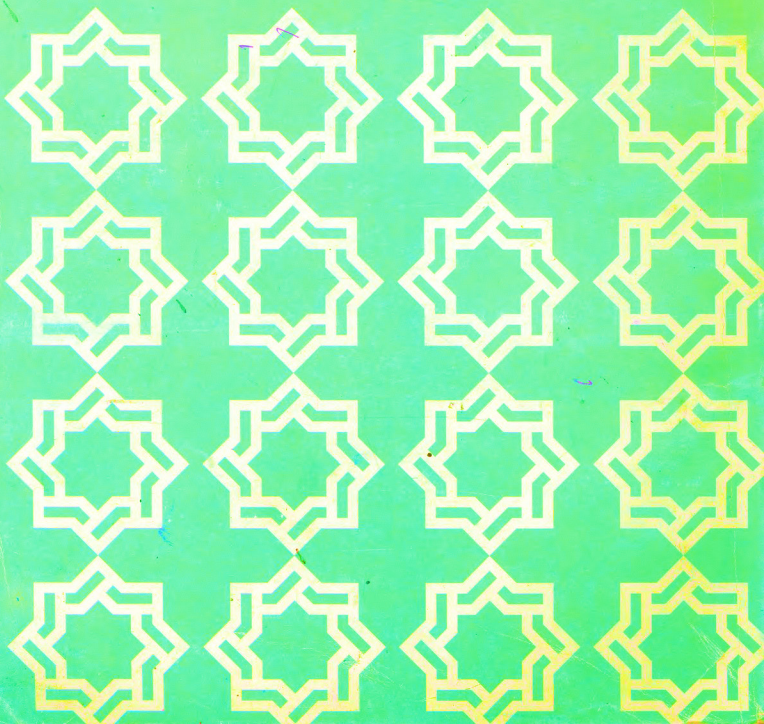

المستدرك على المعاجم العربية

للمستشرق الهولندي

رينهارت دوزي

ترجمة الدكتور

اكرم فاضل

مديرية التراث الشعبي ـ وزارة الاعلام

بغداد

توطئة

شاء القدر ان اهجر القانون للتشبيب بالفولكلور ، وان يغفي بي الفولكلور الى مغازلة اللغة ، اللغة التي اغفلتها المعاجم العربية ... لغة دوزي في (المستدرك على المعاجم العربية) .

لست من صناديد هذه الحلبة ، ولكن كم من بطل حمارس كان رعديدا ترتعد فرائصه لدى كل نباة فالجاته الظروف الى موقف كان لا مناص له من الظهور فيه بمظهر الشجعان او الموت موت الجبان ! وهذا حالي مع دوزي . ترجمته في (المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب) لعلاقته بالفولكلور . واليوم اترجم « التنبيه » و « المقدمة » الشاقين من (المستدرك ...) لغرض واحد هو الجواب على تساؤل الكثيرين عن ماهية هذا المعجم ، الذي قال عنه الامير مصطفى الشهابي انه يحتاج الى نخل ، والذي اقول عنه انه يحتاج الى غربلة قبل النخل . فمن المغربل ؟

حاشاي ان اعد القراء بشيء . لن اعدهم بالمستحيل اشخاصا وزمانا . اذ هذا الجهد يقتضي تجنيد عشرين من العلماء مدججين باللغات القديمة والحديثة وعشرين سنة . ولكني سأترجم في العدد القابل من (المورد) ما يرد تحت حرف (الثاء) او حرف (الذال) كعينات مما يتضمنه هذا المعجم الفنان .

تنبيه

ان عدم كفاية المعاجم العربية التي الفها كوليوس وفريتاك ولين الخ . مسالة معروفة بصورة عامة . ومهما تكن مزايا هذه المعاجم فلا تعدو عن كونها ترجمات للمعاجم التي الفها العرب انفسهم ، وهذه الحالة هي علة محذور مزدوج . فعلى الصعيد الاول ، يعرض هؤلاء المعجميون العرب تفسيرات من المحتمل انها كانت مفهومة في الازمنة التي دبجت خلالها ، ولكنها ما لبثت ان عدمت صفة كونها مفهومة، حتى لدى المسلمين العلماء الاعلام : او انها لا تفسر شيئا حين تقول بكل بساطة ان كلمة من الكلمات التي لم تعد رهن الاستعمال منذ عهد بعيد هي « معروفة لدى الخاص والعام » (راجع مقدمة لين ، ص٢٢) . وهناك محذور اخر اشد من المحذور الاول خطورة ، هو ان هؤلاء المعجميين كانوا متشددين متفيهقين ، لم تكن نيتهم ان يوردوا الا اللغة الفصحى المزعومة ، هذه اللغة التي يكاد امرها يكون منتهيا مع القرن الاول للهجرة ، ومعنى ذلك ، في فترة شرع العرب خلالها ينسلكون صفا بين صفوف الامم المتحضرة ويتسامحون بتقبل جمهرة من المصطلحات الجديدة ، الاجنبية جزئيا ، وذلك للتعبير عن اشياء جديدة وعن افكار حديثة ، فبل فترة استحداث مصطلحات كتبهم التي تذوقناها بشغف ، كتبهم في الجغرافية وتواريخهم واعمالهم في مجالات العلم قاطبة . اذن فالمستعربون هم في وضع يكاد يشاكل كل المشاكلة وضع دارسي الثقافة الهلينية ، لو انهم حين قراءتهم ثيوسيديد وديموستين وافلاطون لم يكن لديهم الا معجم واحد في لهجة هوميروس .

ومع ذلك فان تاليف معجم عربي يتضمن كل كنوز اللغة حتى نهاية العصر الوسيط ، هو عمل يتطلب ، لا اقول عددا طويلا من السنين ، وانما يقتضي قرونا ، ذلك لان الادب العربي على ثروة هائلة ، وان ما نشر منه انزر من النزر بالقياس للمصنفات التي لم يقدر لها الطبع والتي تكاد تكون مجهولة .

فهل يكون هذا سببا للاضراب عن العمل بالكلية ؟ ان ما لا يمكن ان ينجز بالتمام وبضربة واحدة ، يمكن ان يعمل بالتتالي وخطوة فخطوة . وسيؤلف المؤلفون عدة مستدركات في يوم من الايام القابلة كمصنف متكامل او يؤلفون شيئا يشبه المصنف المتكامل .

لقد ظننت والحالة هذه انني اعمل عملا يستحق الثناء بتحرير الملاحظات التي جمعتها خلال اعوام كثيرة عن الكلمات والتعابير التي لم تتوفر لا لدى فريتاك ولا عند لين . فاتخذت اساسا لعملي ثلاثة قواميس للمصطلحات الفت في اسبانيا اثناء العصر الوسيط ، اثنان منها بالعربية واللاتينية : هما المخطوطة المرقمة ٢٢١ من ليدن ، التي يخيل الي انها كتبت في القرن الثاني عشر ، وكتاب المفردات Vocabulista الذي نشره شيابارللي Schiaparelli في فلورنسة .

اما القويميس الثالث فكتاب المفردات الكبير الاسباني العربي من تصنيف بيدرو دى الكالا ، المنشور في غرناطة عام ١٥٠٥ .

ملحوظة : حذف هذا التنبيه من طبعة مكتبة لبنان لعام ١٩٦٨ (المترجم) .

وادمجت في تاليفي معظم الملاحظات المعجمية والمصطلحات اللغوية ، التي اضافها العلماء الاوروبيون الى المؤلفين الذين الفوها وترجموها .

والحقت بها المفروز من عدد كبير من المعاجم ومجاميع المفردات من اللغة العصرية ، امثال تلك التي نهض بمجهودها بقطر Bocthor وهمبر Humbert وهيلو Hélot ودونباي Dombay وشيربونو Cherbonneau الخ .

وهي في معظم الحالات نافعة للغاية بغية فهم لغة العصر الوسيط ، ولكن الصعوبة تكمن في استعمالها ، ذلك لان المقابل الفرنسي في العموم يرد قبل المقابل العربي . ينبغي اذن ادارتها، اذا صح التعبير ، وتنضيدها حسب الحروف الهجائية . وهذا ما فعلته ، دون ان ادع الخور يتسرب الى نفسي من جراء عمل طويل قاحل كهذا العمل . وعلاوة على ذلك وضعت في موضع الاستفادة المعجم الذي نشره بطرس البستاني في بيروت عام ١٨٧٠ ، تحت عنوان محيط المحيط ، والذي يضم كثيرا من المصطلحات التي ليست فصحى . والرحالة الاوروبيون الذين تجولوا في اصقاع اسيا وافريقية امدوني كذلك بعدد كبير من المعلومات المفيدة . ومع ذلك فان مصادري الرئيسية هي المؤلفون العرب الذين قرأتهم ، سواء في النصوص المطبوعة ، او في المخطوطات الموجودة في مختلف المكتبات ، والتي تعالج مواضيع شتى . واخيرا يجيء دور اصدقائي العلماء ، لا سيما سيمونيه (من غرناطة) . ورايت (من كمبردج) وأماري (من روما) ، الذين امنوا مجهودي بمساهماتهم الهامة .

وسيظهر الكتاب في ثماني تسليمات تؤلف بمجموعها مجلدين ، وستتلو بعد ذلك الارباع الثلاثة التي تم تحريرها واصبحت مائلة للطبع . اما المقدمة وثبت الكتب الوارد ذكرهما فسيضمان الى آخر جزء من الكتاب .

المقدمة

ان اللغة العربية الفصحى ، لغة القصائد القديمة ، لغة القرآن والسنة ، لم يكن لها وجود انذاك الا منذ نحو مائتي سنة . فمن حوالي القرن الاول للهجرة ، اي قبل ان يكون للعرب ادب اخر ، عانت ما عانت من تبدل كبير ، كان يهدف الى تعاظم فوق تعاظم . كانت النتيجة حتمية لا يمكن تجنبها وذلك من جراء الانتصارات السريعة لاتباع رسول مكة التي تكاد تدخل في باب المعجزات : وقد كفت اللغة عن كونها منطوية على نفسها اذ اصبحت ملكية لاقاليم كانت استولت عليها . وان التلاحم مع الشعوب المقهورة ، التي شرعت تتحدث باللغة العربية ولكن تنطقها بصورة غير صحيحة ، قدر له ان يفعل مفعوله لدى العرب انفسهم . اذ اهملوا التقيد باستعمال القواعد العربية . واستخدموا كلمات في معاني اخرى واستعاروا عددا كبيرا من تعابير لغات المغلوبين على امرهم ، من السريان والفرس والاقباط والبربر والاسبان والترك . ومع ذلك فان التجارة مع الخارج لم تكن السبب الرئيسي في تحريف اللغة او السبب الوحيد . اذ يجب ان نبحث عن هذا الافساد اللغوي كذلك في الوضع الجديد كل الجدة الذي خلقه المتغلبون بايديهم . فقد وجدوا انفسهم ، وهم الرحل حتى ذلك العهد او الساكنون في المدن الصغيرة ومعيشتهم في غاية البساطة ، محمولين بصورة فجائية الى عالم كان كل شيء فيه جديدا عليهم ، اذ هم ارتموا في احضان مدن كبيرة يسودها الترف وتعج بالحضارات القديمة ، كحضارة الامبراطورية الرومانية وحضارة الفرس . ولنعجل فنقول يعتبر شرفا لهم انهم تعلموا من رعاياهم الجدد ، وطفقوا يدرسون العلوم والفنون التي كانت غريبة عنهم بحرارة . وحدثت ثورة شاملة في افكارهم كما حدثت في اخلاقهم ، ولابد ان تتاثر لغتهم من ناحيتها من هذا الانتقال المفاجيء من حياة نصف متبربرة الى حياة مدنية ناعمة بافراط . فافتقرت لغتهم من جهة ، واترفت من جهة اخرى . فسقط ما سقط من الالفاظ الحوشية في لغة الكتابة ، ولعل السالفظ كان يعادل ثلث اللغة ، وكانت هذه الكلمات تعبر بصورة رئيسية عن الافكار البدوية، اذا صح التعبير ، دون حساب ان العديد من هذه الكلمات لم يكتب له الاستعمال العام في اية فترة من الفترات ، وعلى النقيض من ذلك ، استحدثت تعابير جديدة لتعيين الاغراض والافكار المجهولة ماضيا ، او تغير معنى ، كان معروفا من الكلمات .

كل ذلك بصورة مقدرة او غير مقدرة ، طبقا لعبقرية اللغة . هذا التحول في الكلمات وقع في كافة الاقاليم التي يسودها العرب ، ولكن بدرجات غير متساوية . ذلك لان تجزؤ الامبراطورية ساهم دون ريب في تعجيل تكون اللهجات ، وما لبث كل اقليم ان استقل بلهجة خاصة (١) . ومع ذلك فان هذا التحول لم يؤثر تاثيره دون ان يصادف معارضة عنيفة من جانب المتقعرين في اللغة والنحاة ورجال الدين والفقهاء ، الذين لم يكونوا يتقبلون ولا يدرسون الا اللغة الفصحى . وهم بجهلهم طبيعة الاشياء وعدم فهمهم واضراب ارادتهم عن الفهم بان كل شيء في العالم عرضة للتغير ، وان الالسنة تتغير على هوى تغيرات الفكر ، وان هذه التحولات تتحمل ضغط المجتمع الذي يتحدث بها ووطاة الكتاب الذين يكتبون بها ، انهم بوضعهم هذا ارادوا جعل لغة كتاب الله ثابتة دائمة ، فلم يعيروا التجديدات التي ابتدعها معاصروهم بارادة او غير ارادة الا ازدراءهم واستخفافهم .

وبغية ايقاف هذا الفساد في نظرهم عند حده ، ولفرض الوقوف في وجه هذا التردي الذي يعادل انتهاك الحرمات ، باعتبار ان القضية تمس اللغة المقدسة ، فانهم اكثروا من كتب القواعد النحوية ، واسرفوا في نشر المعاجم ، وتجاوزوا الحدود في بث الرسائل الواخزة اللاذعة التي استنكروا فيها الاخطاء المرتكبة وضحكوا على ذقونها ، تلك الاغلاط التي وقع فيها العظام والطغام ، فنشات بدعة قل ولا تقل . ولكننا الى حد ما يترتب علينا ان نقول ان جهودهم لم تكن عقيمة كلها .

وانهم لم يستطيعوا منع الانحطاطات اللغوية من الحدوث ، ولكنهم على اقل تقدير اخروا حدوثها وحصروها في حدود معقولة. وبالتفاتهم وبفضل تدارس القرآن ، الذي يشكل اساس التربية الاسلامية ، فان اللغة العربية لم تدع المجال حرا لولادة السنة اخرى ، كما حصل للغة اللاتينية مع اللغات الرومانية ، وحتى ايامنا هذه فان اللغة المكتوبة ، على الاقل بالنسبة للنحو ، تقترب كثيرا من اللغة القديمة ، مهما عانت لغة الكلام من تبدل. ولكنهم رغم ذلك لم يستطيعوا ايقاف مجرى الاشياء الطبيعي ، فان فئات جديدة من الكتاب استخدمت اللغة الدارجة دون ان يساورها اي وسواس ، بل ان هؤلاء الكتاب اعترفوا بهذا الامر علانية . وعلى هذا فان احد رحالي القرن العاشر الميلادي الا وهو المقدسي (٢) يؤكد بوصفه سوريا (سريانيا) يكتب عادة بلهجة وطنه ، وانه مراعاة منه للون المحلي يستعمل في وصف كل اقليم لهجة ذلك الاقليم الخاصة ، وهذا يعني اختيار

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ج١ ، ص٣٠٧ـ٣٠٦ ، ٣٦٠ طبعة كاترمير .

(٢) ص٣٢ ، دي‌خويه .

الكلمات بالتخصيص . وثمة ظاهرة رائعة هي ان المتشددين انفسهم يستعملون دون علم منهم التعابير المستحدثة . فهم في معظم الاحايين يفسرون المصطلحات الفصحى في معاجمهم بكلمات جديدة ، وفي اسبانيا كان الناس يسمعون النحاة الطائري الصيت وهم يدرسون اللغة القديمة بلغة اهل القطر (٣) وهذا مصداق ان التطبيق لا يتجاوب دائما مع النظرية . ومع نجوم هذه الحالة فان المتحرجين تمسكوا باذيال اللغة الفصحى . فسجلوا كلماتها وشرحوها ، ونبذوا ما سوى ذلك ، وادخلوا ماراقهم منها في قواميسهم التي هي بالغة الكثرة وغالبا ما تكون ضخمة الاحجام . وهذه المعاجم كانت تؤلف الاساس للقواميس التي ظهرت بعدها في أوروبة ، لان هذه المعاجم لم تؤلف طبقا للجرد النظامي لدى المؤلفين ، وانما مؤلفوها حذوا حذو المعجميين الشرقيين . وهذا هو الاسلوب الذي ساد في معجم كوليوس Golius ، السفر الرائع في زمانه كما ساد في معجم فريتاك الذي حل محله ، والذي بالرغم من انه لم يحقق الظنون التي من حقها ان تنتظر شيئا مذكورا من معجم مؤلف بعد معجم كوليوس، اقول رغم ذلك فان معجم فريتاك هذا ادى خدمات جليلة ، لان المعجم الاول اصبح فادح السعر . واخيرا ساد معجم لين (هذه الاية الرائعة الدالة على الصبر وسعة الاطلاع والضبط والنقد السليم ، هذا الانتاج الكامل بقدر ما يستطيع ان يبلغه من الكمال مفهوم قاموس عربي مؤلف بصورة وحيدة ، او يكاد يكون كذلك ، استنادا الى معاجم الشرقيين المعتمدة ، بحيث اننا نستطيع القول ان ما بقي من بذل الجهود نزر يسير .

واذ ان اللغة الفصحى هي كذلك معدن الاصطلاحات التي اعقبتها ، فان هذه الاعمال ستظل لا غنى عنها لاولئك الذين يدرسون المؤلفين العرب للعصر الوسيط الذين يروقوننا فوق كل ما يروقنا : او وهم المؤرخون الجغرافيون والقصاصون وعلماء النبات والاطباء والفلكيون .. الخ ، ولكنهم لا يكفون ، اذ تعوز هذه الاعمال طائفة كبيرة من المعاني المفقودة . ويقول لين عن نفسه (٤) انه طرد المصطلحات اللافصحى الا ما شاء الله .

اما فريتاك فيجود اكثر ، ومع ذلك فانه لم يجرد جردا اصوليا اي كتاب ، حتى ايا من الكتب التي نشرها هو نفسه ، وعلى هذا فانه بالنسبة لهذا الصنف من الكلمات كانت يده مشؤومة ، ودلل على نقص يكاد يكون تاما في النقد . وهكذا فانه لم يقرأ اي شيء مطلقا ، اذا حكمنا على ذلك استنادا الى معجمه والى كتاب الف ليلة وليلة ، ولكنه استعان هنا وهناك بشروح الكلمات التي اضافها هابيخت الى اجزائه المختلفة في طبعته لهذه الحكايات . وعلى ذلك فان هذه الشروح ، كما برهن على الامر فليشر برجاحة عقل وتوقد ذهن وشمول اطلاع ، تعج بالهفوات والمعاني المعكوسة . وفريتاك لم يشعر بهذا ، ونحسب انه حين يترك التوضيحات الجيدة جانبا يجتهد في اقتباس اغرب المزاعم وابعثها على الضحك . وهذه مواد كثيرة يجب شطبها .

ان معجما يتضمن التعابير اللافصحى مايزال مطمح الانفس ، ولكن اللغة العربية والادب العربي غنيان الى درجة ان سنوات ستمضي بل ربما ستمر قرون قبل ان يشرع الشارعون يعمل من هذا الطراز. يقول لين ، وهو القاضي المختص دون منازع في هذا المجال : « ان معجما بالعربية اللافصحى ، جديرا بهذا الاسم ، لا يمكن ان يؤلف الا من قبل كوكبة موفرة من العلماء المقيمين في بلدان اوروبة الذين يملكون مكتبات حسنة تضج بالمخطوطات العربية ، ومن قبل امثالهم من العلماء في مختلف اقطار اسية وافريقية ، فهناك يفترفون اغترافا جزئيا من الكتب ، وينتفعون انتفاعا شطريا من المعلومات والارشادات التي يستطيع العرب وحدهم منحهم اياها ، بل يجب توافر عدة متعاونين متبحرين في العلوم الاسلامية » . ان الفكرة عظيمة وبديعة ، ولكن فهمها اسهل من تنفيذها . كيف يتم الوصول الى انجاز عمل شاق للغاية يقتضي نفسا طويلا من جهة علماء يتضامنون في اجزاء العالم الثلاثة ، في حين ان المستعربين في اوروبة ، وهم مبعثرون هنا وهناك ، لكل منهم همومه وشواغله، وعدم تعود اهل الشرق على طرقنا العلمية ؟ وبالاضافة الى ذلك ، من يتفضل بتحمل هذا الجهد الذي لا يحسد عليه في تدبيج كتاب من هذا الجنس ، ذلك لان التحرير يجب ان يودع الى رجل واحد ؟ وهل بوسع المحرر ان يضمن صلاح كافة معاونيه ودقتهم ؟ هل سينجح في اشاعة الانسجام وادامته بين هذه المجموعة من الاشخاص الذين يحتمل ان تتضارب وجهات نظرهم أحيانا وتتناحر أفكارهم ؟ ألن يكون جهد عالي من هذا النوال في نهاية المطاف ، كشكولا بعسر هضم محتواه ، كتلة لا هيئة لها من المواد ، لا ان يكون معجما اصوليا نظاميا ؟ انني اخشى ذلك، واعتقد على كل حال ان الزمن المقري بالقيام بمشروع كهذا لم يحن بعد .

ومع ذلك فان حشدا من التعليقات تجمع خلال اكثر من قرن دون ان يكتب له التدبيج او يقدر له التوضيح ، اذ ان كل مستعرب كان مرغما على نوع من تكملة القاموس وفقا لاستعماله الخاص . وان مكتبتنا لتحتوي على طائفة من هذه القواميس المحشاة التي يقف بينها قاموس كوليوس بتعليقات دي جان جاك شولتنس في الصف الاول. وان جان جاك بن البير، الذي مارس تدريس اللاهوت والالسنة الشرقية في جامعتنا منذ ١٧٤٩ حتى ١٧٧٨ ، ومات خلال السنة كان قد حالت دون مراميه انشغالات عديدة من عبئه الثلاثي لا سيما المنازعات اللاهوتية لعصره التي شارك فيها مشاركة نشيطة جعلته يحيد عن نشر اي شيء كان عن الادب العربي ، ولكنه رغم ذلك لم يكن الرجل الاقل علما في عصره في هذا الفرع من الدراسات (يمكن موازنة ريسكه فقط به) ، والذي كان قرأ ، ويراعه بيده ، كتبا اكثر من الكتب التي قراها والده ، مصلح الدراسات الشرقية، وابنه ، هنري ، البير ، الذي خلفه في كرسه الذي اشغله بتفوق . ولكن لسوء الحظ كانت التعقيبات المفرطة في الكثرة التي اثقل بها حواشي كتاب كوليوس ، التي كان يدبجها يوما بيوم ،فوضى ضاربة الاطناب حقيقة بصعب تبين مسالكها . وهي ليست على هذه الصعوبة بالنسبة لمن خطها ، ولكنها عسيرة علينا. ومن المؤسف كل الاسف ان شولتنس لم يدبجها وينشرها. ولو انه فعلها في زمانه لكانت ساعدت على تقدم دراسة علم اللغة العربية كثيرا ، لاننا واجدون لديها احيانا تفسير الصعوبات التي اوقفت بعد ذلك العديد من المستشرقين أمثال سيلفستر دي ساسي(٤) وهناك مجموعة من التعليقات أوسع

---

(٣) المقري ، ج١ ، ص١٣٧ ، ط ليدن .

(٤) لم يوفر فريتاك لهذه التعليقات الا استعمالا ضيقا ، وفي غالب الاحيان كان يؤديها اداء يعوزه الضبط . وكنت اتمنى لو ادرجت في كتابي كل هذه التعليقات التي فيها طرافة ، لاننا في الحالة الراهنة للعلم نجد ان معظمها اصبح عقيما . ولكن يجب ان تحقق الاستشهادات كلها ، وقد حسبت ان عدا العمل يتطلب سنتين ، دون ان

كثيرا هي المجموعة التي صنفها العلامة كاترمير لتكون في خدمة نشر معجم ثلاثي اللغات العربية والفارسية والتركية الشرقية ، وقد اراد الشروع بنشره في بحر عام ١٨٣٨ (٥) ولكنه لم يظهر وهذه الاوراق محفوظة حاليا في مكتبة ميونيخ ، وجميع الذين يعرفون كتب هذا العلامة يقفون مقتنعين مقدما بان تعليقاتـــه المخطوطة على غنى لا يوازن بغنى اخر ، لان شخصا لم يقرا قط، في مجال علم القواميس ، هذه الكثرة الكاثرة من المؤلفين . وهي على الاخص تحتوي على الـكثير من المصطلحات الكنسية ، الصادرة عن الافريقية او القبطية . ولـكن لسوء الحـظ ، بالرغم من ان هذه التعليقات اسهل مراجعة من تعليقات شولتنس (لان كل ورقة لا تحوي الا استشهادا واحدا) فانها ليست مجرودة كذلك . وفي معظم الحالات تكون المصطلحات محشاة ، ولكنها ليست مشروحة . وينبغي بالنسبة لغالبيتها مضاهاة المخطوطات التي استقيت منها ، مخطوطات المكتبة الوطنية ، وهذا معناه ان تحرير هذه التعليقات ، اذا شرع به شارع ، لا يمكن ان يحصل الان في باريس (٦) .

اليس من المؤسف ان تعليقات امثـــال هؤلاء العلمـــاء والعديدين من غيرهم الذين نستطيع تسميتهم (وهي ثمرات ليال طوال ساهرة وعصارات قراءات واسعة) يكتب عليها الضياع فيخسرها العلم ؟ والامر كذلك بالنسبة لكافة التعليقات التي لم يقدر لها ان تحبر من قبل اولئك الذين عملوها . اما الاخرون فلن يعملوها ولو عملوها لظهرت رديئة ، لان كتابة تعليقات الاخرين عمل ضئيل الجاذبية وغالبا ما يكون مستحيلا . وانني تحدوني هذه الاعتبارات (ولو كنت مقتنعا بعدم نجاحي في انتـاج كتاب نافع) جرؤت على الظن بانني ساضع كتابا مفيدا وذلك بترتيب التعليقات اللغوية التي جمعتها اثنـــاء قراءاتي مدى اكثر من ثلاثين سنة ونشرها ـ وباستثناء بعض الحالات حين أجد ان

تتناسب النتيجة مع المشقة والوقت المقتضيين ، ذلك لان الفرز لو حصل لن ينفحنا في ختام الامر الا بنحو مائتي صفحة من القطع الثماني ، لذلك حددت نفسي في نطـاق استشارة هذه التعليقات بين الفينة والفينة ، ومنهـا اقتبست تعليقاتي عن (المكين) وابي الفرج وابن البطريق وابن الطفيل والعمراني ومن المصنف المسمى الفرج بعـد الشـــدة .

(٥) ذلك ما اعلنه كاترمير في جورنال ازياتيك لهذه السنة ، السلسلة ٣ ، ج٥ ، ص٢٠١-٢ .

(٦) بفضل تلطف ادارة مكتبة ميونيخ ، استطعت ان اتفحص على رسلي الرسالة الاولى من مجموعة كاترمير ، وبالغت في التكرم . فعرضت على ارسال البقية بالتالي اذا رغبت. وانتم ترون لماذا لم استطع الانتفاع من هذا العـــرض . وسالاحظ ايضا ان نصف هذه الاوراق وربما يكون غير مجد للناشر المقبل . بعضها مزدوج او ثلاثي الاستعمال، وبعضها يتعلق باسماء خاصة او نسبية ولا علاقة لها بالقاموس (لقد لاحظت خمس عشرة منها تحتوي على اشارات الى حياة الشاعر امرىء القيس) . واخيرا هناك عدد منها لا خير فيه بعد نشر قاموس لين . واعرب مرة اخرى عـن امنيتي بان تقع يوما في ايد ورعة ، وآمل ان يســكت المراجعون عن الاخطاء التي تتضـمنها ، الاخطاء التي تبعث على الدهشة حين تصدر من عالم جليل مثله . ولكن يجب ان نتذكر ان هذا العالم كان له مثلنا لحظات ذهول ، ولو اتيحت له فرصة مراجعة هذه التعليقات لصححها بنفسه دون ريب .

التوسعات تبدو مرغوبة ، اسدل ستار الصمت على كل ما شرحه فريتاك اولين شرحا حسنا(٧) وافرغ جهودي في تكملتها مستقيا معلوماتي من عدة مصادر ساشير اليها .

ساسمي بادىء الامر ثلاثة قواميس مؤلفة في اسبانيا في العصر الوسيط .

القاموس الاقدم هو القاموس اللاتيني العربي الذي تضمنته مخطوطة ليدن ٢٣١ ، التي عينتها بحرف اللام . وهي تعود لسكاليجر Scaliger ، الذي تلقاها من غليوم بوستل Guillaume Postel فاستعملها في كتابه كنز اللغة العربية ! Thesaurus Linguae Arabicale (المصنف الذي لم ينشر، ولكن أصله من مقتنيـــات مكتبتنا ، مخ ٢١٢) وكذلك معاصره وصديقه رفلنجيس Raphelengius في كتابه القاموس العـربي Lexicon Arabicum ليدن ـ ١٦١٣) . وهذا الاخـــير (انظر مقدمتـه) ظنـه مكتوبـا منـذ نحو ثمانمائـة سـنة تقريبا . وعلى هذا التقدير يكون من نهايـــة القـــرن الثامن ، وهو زعم من العقم دحضه . فسكاليجر مبالغتـــه أقـــل اذ يقول ستمائة سنة او ما يقاربها . ولكن يبدو ان المخطوطة احدث من نهاية القرن العاشر ، لانها مكتوبة جزئيا على الرق ، وجزئيا على ورق القطن . وغالبية الاوراق من المادة الاخيرة . ومعلوم لدينا ان الناس قبل القرن الحادي عشر لم يجدوا كتبا مسطورة على ورق القطن (٨) واهجس ان المخطوطة من القرن الثاني عشر، وهذا نفسه رأي خبيرين معتمدين هما رايت Wright من (كمبردج) وكاراباشيك Karabacek من (فينا) .

وهي بعيدة عن كونها اصلا ، وبالاضافة الى ذلك فهـي بصورة رديئة ، ولكن الكتاب نفسه ، اذا حكمنا عليه باللغـــة العربية ، ليس اقدم قطعا . وقد الف في اسبانيا ، كما تؤيد ذلك حسما عدة مصطلحات من اللاتينية المتاخرة ومن العربية الوافدة ، وكذلك قائمة صغيرة بالاسبانية في الخاتمة ، حيث تعدد الخيول المختلفة الشيات . اما اسم مؤلفه فمجهول . وبوسعنا الظن بانه كان يهوديا ، ذلك لاننا نجد في النهاية الاسماء العربية والعبرية للاحجار الكريمة ، كل هذا بحروف عربية ، ومثلها الاسماء اللاتينية والعربية للكواكب وعلامات البروج مع ترجمتها بالعبرية المكتوبة بحروف عبرية . ولكن مداد الحروف العبرية مختلف وربما هناك يد اخرى . وهذا ، على العكس ، ما يشير ظاهرا الى انه كان مسيحيا ، ذلك لانه يقول مقابل كلمـة Iffodiaconus (شماس رسائلي) . اذن بوسعنا ان نفترض مع سيمونيه انه كان مضربا او يهوديا ارتد عـن دينـــه .

واللغة اللاتينية في هذا القاموس تبدو احيانا خليطا مـن الكلمات التي عفى عليها القدم بحيث لا نجدها الا لدى فـارون Varron او لدى لغويين قدماء اخرين (ارتاب دائما في فهم جامعها) وهناك لغة لاتينية اردا ما تكون . وغالبا ما نعـدم المقابل العربي . ويفهق الكتاب بالاغلاط والاوهام والاضطرابات فنجد مثلا كلمـة Verbis بدل كلمـــة Verpex مترجمة بكلمة كيس بينما هي كبش . على حين انها يجب ان تترجم بكلمة كبش . ومقابل كلمة Sterto نجد كلمتي اخور

(٧) بحث في الانظمـة الدبلوماسـية ، ج١ ، ص٤٩١ ، شونمان.

(٨) نشر استنادا الى نسختي ، من قبل سيمونيه ، ص١٦٦ مخ ٤ .

واعطس . في حين ان الكلمة الاولى يمكن ان تعني بالعربية Sterto اي شخر . ولكن الكلمة الثانية تعني Sternuo او Sternuto اي فعل العطاس ، ومقابل كلمة Sciasis نصادف كلمتي خرقة النسا . وهي غلظة . والمراد عرق النسا . واحيانا لا يناظر اللاتيني العربي مطلقا . مثال ذلك :

خلاق ثم جارح

Plagiarius (Vel plagiator, abilelator, seductor)

وينبغي ان نلاحظ ان (ثم) تشير في هذا القاموس على الدوام الى وجوب اخذ الكلمة اللاتينية بمعنى مغاير للمعنى المتقدم ، وعلى هذا فان المصطلح العربي الثاني الذي يعني من يجرح اي الجارح يظهر ضرورة التفكير ، ليس في التفسير اللاتيني ، ولكن في الكلمة التي تصاغ من كلمة Plaga (كلمة Plaga هذه تتقدم مع الترجمة (جرحة ثم ناحية) . اما المصطلح العربي الاول . فلا استطيع ان اعلم ما هي علاقته مع كلمة Plagiarius (يسرق ، ينتحل) . واحيانا تقع الكلمات محرفة الى درجة ان نحار ما نعمل بها . وهكذا فان كلمة Fervuidus هي نربق وكلمة Fetosa متباعة حاملة . Plaga = ناحية و Plaga = جرح . Fervidus = فائر و Fetora لاندري معناها (٩) .

والاملاء اللاتيني لدى المؤلف غاية في الغرابة . فهو يخلط دون انقطاع بين الحرفين v و b وهذا في الحقيقة مطابق للعادة الاسبانية . ويخلط بين e و i و o و u (وبين كلمتي in quu و in quo) الخ . وهو يستهتر بالحرف H استهتارا عجيبا ، بحيث يضيفه او يحذفه على هواه بالنسبة للحالات والاعداد . فكلماته طورا في حالة الرفع وتارة في حالة الاضافة وتارة في حالة الجر ، الخ . مرة يستعمل الافراد ومرة يستخدم الجمع ، وهو يحذف الحرف s مرة والحرف m مرة من مقطعي us و um ، دون علامة اختصار . وفي العربية يرسم دائما الفتحة والضمة والكسرة والسكون بل حتى حروف الاعراب ، ولكن يخلط بين الحروف ذات نفس المخرج . مثال ذلك الدال والظاء (كثرة الانعاذ Satiriasis) بدل كثرة الانعاظ . ويخلط بين الزاي والتاء (عامر الارض وحارز) بدل عامر الارض وحارث ، ويخلط بين السين والصاد (سراره Cicada (Cicala وهو يعني الصرارة ـ بالفرنسية La Cigale.

ولعل اغلاط هذا القاموس يجب ان تعزى جزئيا الى الناسخ . فهناك نسخة اخرى بوسعها اضاءة السبيل امامنا في هذا المجال . ومن الاهمية بمكان احرازها ، ويزيد من الاهمية كون نسختنا عسيرة القراءة . قال عنها العلامة سكاليجر المعروف ببراعته في حل رموز المخطوطات اللاتينية : (مكتوبة بحروف لومباردية صعبة للغاية) . وانه عانى ما عانى من الرطوبة بحيث ان بعض الكلمات لا يستطاع قراءته او انطمس مع الورق البالغ الرداءة . في البداية طار كل نصف صفحة بفعل القدم . وقد استعمل دوكانج القاموس العربي اللاتيني ، وكان يريد ان يقول اللاتيني العربي ، وهو يقارن بعض المواد التي استعارها من مخطوطتنا ، وقد عرفت ان الكتاب هو نفسه مع روايات اخرى. وهكذا فان ما يعطيه دوكانج مقابلا لكلمة mulco عاقب وكلمة Pestillum (اساس) في قاموسه العربي موجود ايضا في كتابنا . ومقابل كلمة Cimentarius يضع وفقا لنفس المرجع qui disponit Fundamentum من يضع الاساس . وكذلك الحال في كتابنا مع رواية Fundamenta الاسس . ومقابل كلمتي Artabularius و sacis ، المادتين الموجودتين في النسختين ، وضع شرحا لهما دوكانج كلمتي Carticula مشواة لحم و Clyster محقنة ولا وجود لهما في قاموسنا . فاين وجدت هذه المخطوطة ؟ دوكانج لا يخبر بشيء والتنقيبات التي اجريت في المكتبة الوطنية بباريس بناء على طلبي لم تات باية ثمرة . فهي ليست بين المخطوطات الشرقية ولا بين المخطوطات اللاتينية . وقد لاحظ ليوبولد دليل Léopold Velisle ان دوكانج لا يقول ان المخطوطة قابعة في المكتبة الوطنية للملك ، وهذا كما يرى يجعل الشك يحوم حول وجودها اصلا هناك . ولكننا نؤمل ان نعثر عليها في موضع اخر .

وسنرى ان هذا القاموس زودني بمجتنى اقل غزارة من غزارة القاموسين الاخرين اللذين سأتحدث عنهما ، ولكن هذا القطاف رغم ذلك عظيم الفائدة .

هناك كتاب مفردات اخر ، عربي لاتيني ولاتيني عربي ، هو الذي اشرت اليه بالحروف Voc وهو اكمل واضبط : هذا الكتاب هو الذي نشره شياباريلي Schiaparelli بعناية كبيرة في فلورنسا عام ١٨٧١ ، اعتمادا على مخطوطة ريكارديانا Ricardiana . وقد الف في شرق اسبانيا ، في قطالونية او في مملكة فالنس (بلنسية) ربما من قبل الاب الواعظ ريمون مارتن (١٠) اللاهوتي المشهور ، الفيلسوف المستشرق القطالوني ، الذي كرس نفسه لتمسيح المسلمين والذي مات بعد فترة قصيرة عام ١٢٨٦ . وعلى كل حال فقد الف في زمانه . وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظنه بعض العلماء اقدم (١١) ولكن كلمة طاهرية مقابل كلمة Fiala (مزهرية) تحول دون ذلك ، لان هذا النوع من المزهريات يستعير اسمه من السلطان الملك الظاهر بيبرس ، الذي كان يستعمل هذه المزهرية على خوانه والذي حكم من عام ١٢٦٠ حتى عام ١٢٧٧ (١٢) . ومخطوطة ريكارديا ، التي هي ليست الاصل ، يتراءى لي انها من نهاية القرن الثالث عشر (١٣) اذا حكمنا كما يبدو بالنسخة المنقولة . والصعوبة الاولى التي يمثلها استعمال ثبت الكلمات دون حساب ان الكلمات القطالونية في اسفل الصفحات التي يجب في الاغلب ان يتناولها التصحيح ،

---

(٩) لدى بابياس تحت كلمة abigerator (سارق) توجد كلمة abigere (سرق) وهي من اللاتينية المتأخرة .

(١٠) راجع مقدمة شياباريللي ، ص١٩و٢٠ وسيمونيه ص١٧٠ .

(١١) ظن أماري وبونيني ان المخطوطة (غير الاصل) يرجع تاريخه الى القرن الثاني عشر أوالى بداية القرن الثالث عشر ويرى جانيه وكركوروفيوس انها من مصر ادنى، ص١٢-١٣. وسيمونيه في ص١٦٩ يعين تأليف الكتاب بمنتصف القرن الثالث عشر .

(١٢) راجع كتابي ، ج٢ ، ص٦٥ أ .

(١٣) رأي رايت هو رأي نفسه . كتب الي : « أما عن مخطوطة فلورنسة ، فقد اصبت التاريخ فأحسنت اصابته وبقدر ما استطيع ان احكم على ذلك استنادا الى النسخة الموجودة لدي ارى انها ترقى الى القرن الثالث عشر ، ولكنها تصل الى حوالي عام ١٣٠٠ .

تنحصر في المدلول الذي ينبغي نسبته الى الصيغ المشتقة من الفعل، المشار اليها ، ولكنها غير مشروحة في مختلف المواد . وبغية عدم دفع المستعربين في سبيل الضلال ، قصرت نفسي في معظم الحالات ، عندما تفترسني الشكوك ، على النص بان الصيغة الفلانية موجودة مقابل المادة الفلانية .

اما الثبت الثالث الذي ألفه الاب بيدرو دى الكالا في غرناطة ونشره فيها عام ١٥٠٥ بأمر من فرديناند دى تالا فيرا ، رئيس اساقفة هذه المدينة ، الذي كان غرضه تسهيل تمسيح المغاربة الخاضعين حديثا ، فانه بدون منازع اغنى الجميع ، ولكنه كذلك من المسارد التي كلفتني دراستها بذل اقصى ما يستطاع من الوقت والجهد . اما العقبات التي توجب علي تذليلها فهي عديدة ومن كل نوع . فقبل كل شيء يعرض المؤلف الاسبانية قبل العربية ، ولم يكن عملا ميسورا صغيرا تقليب هذا الكتاب ، اذا صح التعبير . ثم هناك فيه كثير من العبارات الاسبانية التي شاخت أو تبدل معناها . ويعلمنا المؤلف ، في اهدائه الى رئيس الاساقفة ، انه بالنسبة للكلمات القشتالية، اتخذ اساسا لعمله القاموس الاسباني اللاتيني لانطونيو دي نبريخا (او لبريخا ، كما يكتبه) . اذن فهذا القاموس كان ينبغي استشارته اول ما ينبغي . وقد راجعته باستدامة وتبينت المعاني التي اوردها والتي تختلف غالبا عن المعاني التي نصادفها في القواميس المحدثة . وعلاوة على ذلك فقد أدى لي القاموس الاسباني الفرنسي الايطالي لمؤلفه جيروم فكتور خدمات مفيدة (جنيف ١٦٠٩ ، كولون ١٦٣٧) . ولكن بيدرو دى الكالا اضاف، كما قال ذلك هو نفسه ، كلمات لا توجد لدى نبريخا ، وهذه الكلمات ، التي هي اكثر مما يتوقع المتوقعون ، مقلقة محيرة احيانا . فهناك منها ما لم يعد يستعمل في اسبانيا ، وحتى في غرناطة ، وثمة عقبة اخرى ، تلك هي ان المقابل العربي مطبوع ليس بالحروف الخاصة باللغة العربية ، وانما بالحروف القشتالية ، وان بعض الحروف مؤدى به لغة مغايرة لها . ونتيجة لذلك غدت جمهرة غفيرة من الكلمات الغازا في نظري حتى اهتديت الى معرفة كنهها ، وغالبا بعد انقضاء سنوات عديدة ، في سرد اخر او لدى مؤلف اخر . ولكن قائمتي المريبة ، وهي قبل كل شيء بالغة العظم ، استحالت بالتدريج الى ضآلة عظيمة ومع هذا بقي منها اكثر مما توقعت ، وسالحق هذه الكلمات في ملحق . وعسى ان يتواجد من يشرحها أو يصحح أوهام الطبع التي وقعت فيه . ذلك لان اخطاء من هذا النسخ ، ولو انها ضئيلة نسبيا ، توجد رغم ذلك بين الحين والحين في كتاب بيدرو دى الكالا .

ونظرا لندرة هذا الكتاب وغلاء سعره ، فان الاب باتريشيو دى لاتور الذي عاش ردحا من الزمن في مراكش وتدرب في حرم الاسكوريال عام ١٨٠٥ ، هذا الاب هيأ من هذا الكتاب طبعة جديدة ، اكاد اقول انها انتهت في حينه ، ولكن كافة النسخ ابيدت اثناء الحرب النابليونية ، اللهم الا نسخة واحدة تلك التي تصل الى كلمة Ofrecimiento والمحفوظة في مكتبة الاسكوريال ، المكتبة التي تملك بالاضافة الى ذلك المخطوطة الاصلية الكاملة . وحسبما يقول سيمونيه ، الذي تفحصها ، ان باتريشيو دى لا تور نسخ العربية بحروف عربية ، ولكنه استحدث تغييرات في نص الكالا وحذف كثيرا من الكلمات . واذا استطعنا الحكم مستندين الى المقتبسات التي تفضل العلامة الاستاذ دى كرنادا فاطلعني عليها ، فان لاتور يكون قد نسخ بصورة صحيحة بعض الكلمات المشكوك في امرها ، وليس كلها ، ويتحتم علي ان اعترف انه بالنسبة للهجة الغرناطية لعام ١٥٠٠، حين يناى عن اللهجة المراكشية العصرية ، التي كان يحسنها لاتور ولا شك كل الاحسان ، فانه في هذه الحالة لا يوحي الي بثقة كبيرة .

كذلك يترتب علي ان الاحظ انني بايرادي معجم ليدن ومعجم الاب بيدرو دى الكالا كنت دائم الاشارة الى الكلمات اللاتينية او الاسبانية التي توجد مقابلها الكلمات العربية ، دون تحوير في كيفية كتابة كلماتها ، وذلك لنستطيع ان نجدها عند الاقتضاء . اما عن قاموس فلورنسة فكانت الضرورة اقل ، لان الجزء الاول يقوم مقام فهرس .

وهناك مصنف ذو طبيعة اخرى استفدت منه ايضا ، هو القاموس الذي طبعه بطرس البستاني في بيروت عام ١٨٧٠ تحت عنوان محيط المحيط . انه جمع حسن اقيم على اعمدة قواميس قديمة ، وقد اضاف اليه المؤلف جمعا حاشدا من الكلمات والمعاني اللاكلاسيكية (المولدة) ومن كلام العوام في سورية . وقد تقبلتها ، ولكن وجدتني مضطرا الى طرح معظم الكلمات الخاصة بالعلوم الاسلامية التي يوردها المؤلف بكثرة . ولكن اول شيء ان تعريفاته لا تكون دائما واضحة بصورة كافية بحيث يستطاع فهمها دون استشارة كتب عربية اخرى حيث هذه الكلمات تكون مشروحة بشكل مطول . والشيء الثاني ، ستظل هذه الكلمات غامضة المعاني حين لا يعرف الانسان معرفة تامة المنظومة التي تعود اليها . واخيرا فانني لاعترف ، كما اعترف فريتاك ، انني اعرف هذه العلوم معرفة ضئيلة ، وافكر معه ان حياة الانسان لا تكفي للتعمق ولمعرفة اللغة العربية معرفة تامة في الوقت نفسه . والمطلوب من امثالي المؤرخين المتهنين درجة من الاطلاع على هذه المعلومات غير عالية ، دون حساب انني اخشى ان اضيع المعنى لو توغلت في متاهات دراسة بعض اصناف هذه الكلمات ، كمصطلحات المتصوفين الدقيقة المعقدة مثلا . انه لجهد ادعه عن رضى وطواعية للاخرين .

ينبغي استعمال محيط المحيط بحذر واحتراس . فالمؤلف يورد في معظم الاحيان افعالا في صيغة الماضي لا ينص الجوهري والفيروزابادي الاعلى اسم الفعل منها او اسم الفاعل او اسم المفعول ، ولعل ذلك لانها الصيغ الوحيدة الجارية الاستعمال . وهذا مثال لا تحسن محاكاته . وعلاوة على ذلك فانه يستخدم فريتاك ، الذي لا يشرع بتسميته ، اذا لم تخني الذاكرة ، الا تحت حرف اللام ، وقد نقل عدة من الهفوات . واشتقاقاته للكلمات المستقاة من اللغات الاجنبية مخطوءة في اغلب الحالات : فهو يخلط الفارسية بالتركية بل حتى بالفرنسية . وهكذا فان كلمتي abat-jour مظلة المصباح ، اللتين دخلتا في اللهجة السورية مصدرها في رايه فارسي .

وتجيء بعد ذلك عدة معاجم وكتب مفردات باللغة العصرية، امثال كتب Pagni والياس بقطر و Humbert, Hélot, و Roland de Bussy, Dombay, Herbonneau) الخ . التي هي غالبا بالغة المنفعة لفهم لغة العصر الوسيط ، ولكنها الى ذلك صعبة الاستعمال، لانها في العموم تتضمن الفرنسية قبل العربية ، بحيث ينبغي ، اذا صح التعبير ، ادارتها ووضعها طبق نظام الالفباء العربية .

واعظم القواميس هو القاموس الفرنسي العربي لالياس بقطر المصري ، المنقح والمزيد من قبل كوسان برسفال Caussin de Perceval . وكاترمير حمل غيره عام ١٨٥٢ على عمل فهرس وهو كويل E.A. Gouelle

حيث الكلمات العربية مرتبة حسب الحروف الابجدية ، متبوعة بارقام الصفحات حيثما وجدت . هذا المجلد الضخم يقبع حاليا في مكتبة ميونيخ . وقد استطعت استعارته ونسخه معا ، انا ودخويه ، وهذا ، اذا نظرنا الى الارقام اللامتناهية التي تضمنها تتطلب بعض الوقت وبعض الصبر وبعض الانتباه المتصل .

وبعد ذلك كرست عدة مواسم صيف امضيتها في الريف لتحقيق كل استشهاد ولتمحيص كافة المعاني والتعابير التي ليست لدى فريتاك . وبهذه الطريقة كانت لدي موادي جاهزة قبل البداية بالتبييض . وفي عمل طويل كهذا ومنفر مثله كان كويل يفلت بعض الكلمات ويرتكب بعض زلات القلم (وقد لحظت قسما منها فصححتها في السطور المنسوخة التي اصبحت بالنتيجة اضبط من الاصل) (١٤) . ولكني اجرؤ على القول بانه انجز مهمته على العموم بوعي تام ، وانا اعترف كل الاعتراف بالجميل الذي اسداه ، لانني لولاه وما انا عليه من نفاد صبر كنت اخشى الا استعمل هذا القاموس الا عرضا ، كما صنعت مع قواميس برجرون ومارسيل . الخ ..

وهناك سفر اخر من هذا النوع ، اسف لانني لم استعن به كما ينبغي ، هو القاموس العملي العربي الفرنسي ، الذي اصدره بوسييه Baussier المترجم الاول في الجيش الجزائري ، في مدينة الجزائر عام ١٨٧١ . واستعماله مريح كل الاراحة ، طالما ان المقابل العربي يرد قبل الفرنسي ، ولكنه من هذه الاعمال الجليلة التي ليست معروفة معرفة تسوازي استحقاقها ، واللذنب واقع على عدم اشاعته والتنويه بفضله في الوقت المناسب من قبل حراس العلم النشيطين ، لم تقدر لي رؤيته قط اذ لم يكن كتابي قد خطا انذاك خطوات في التبييض فحسب ، وانما كان يتقدم في الطبع ، واذ في تلك الاونة لفت سيمونيه نظري اليه ، واظن انه له يره هو ايضا الا عن طريق المصادفة . وقد سبق السيف العذل فلم استطع ان ادخل في مستدركي كل ما حواه هذا القاموس من طريف وجديد ، هذا القاموس الذي هو افضل القواميس في اللغة العصرية التي تضمنت اللغة العربية قبل اللغة الفرنسية . ولكني استشرته عدة مرات وقارنته مع منسوختي حتى قبل ان اسلمها للطبع ، بحيث انني استطعت حتى الان ان استعير منه ما اشاء .

ولعل خوفي من اعطاء عملي مظهر قاموس صارخ باللغة العصرية هو الذي منعني فيما منعني من استعمال بوسييه استعمالا واسعا ، بفرض انني عرفته في ابانه . وهو كما هو يكتسي هذا المظهر كما لو كان لم ياخذ بنظر الاعتبار لغة العصرالوسيط. والعلة كامنة في امرين : الامر الاول ، لم استطع بتراي شيء من مقتبساتي من الكتب التي جردتها بصورة كاملة ، لانني كنت ارغب ان اوفر على اخلاقي عذاب الرجوع اليها وضجر التكرار. والامر الثاني ، ارى اننا في الحالة الراهنة للعلم لا نستطيع حتى الان التمييز الصحيح ، على الاقل في حالات كثيرة ، بين مصطلحات العصر الوسيط ومصطلحات عصرنا . وقد وقع لي بضع مرات ان اصادف فجاة (فابهت واذهل) لدى مؤلف من مؤلفي العصر الوسيط كلمة او معنى كان يخيل الي حتى تلك اللحظة انهما عصريان . وان تقدم الدراسات اللغوية القاموسية سيسلط تدريجيا المزيد من الضياء على هذه النقاط ، وفي تلك الحالة ينبغي قطع ما هو فضولي من كتابي . وبغية عدم تضخيمه بعقم فائدة ، سبق لي ان طرحت جانبا عددا كبيرا من الاشياء هي بكل تاكيد من العصر الوسيط ، مثال ذلك كلمات الحوائج التي لا نعرفها نحن انفسنا الا منذ اكتشاف امريكا ، كادوات السلاح النارية والنقود العصرية ، وبعض المصطلحات الاسبانية التي انسلكت في لهجة مراكش ، والتي لاحظها سيمونيه استنادا الى لاتور والى ارشادات P. Lerchundi

وبعض الكلمات الاغريقية والفارسية والتركية والايطالية والفرنسية في قاموس محيط المحيط ، لان في طراز كتاب مثل كتابي لن يذهب الباحثون للبحث عن الخطوط العربية بالنسبة لكلماتنا من امثال :

Piano, Protestation, Pudding,
Thermoméitre, télégraphe, Télésofpe, jambon, général, géologie, الخ .

والكثرة من المصطلحات التي لاحظ Wetrzstein عائديتها الى اللهجة الراهنة لبدو سورية او تلك التي نجدها في مختلف مجاميع المحاورات المنشورة في مدينة الجزائر ، بوسعها كذلك ان تمر تحت ستار الصمت . وانني على اعتقاد جازم اننا لن نصادفها لدى مؤلفي العصر الوسيط .

يجب علي كذلك ان الاحظ انني لن اخذ على عاتقي مسؤولية كل ما استعرته من معاجم اللغة العصرية ، وانني حيثما وجدتها تحذف حروف العلة لن اضيفها الا اذا استيقنت من عدم توهمي اذا فعلت .

ان الرحالة الاوروبيين الذين جاسوا في ديار اسية وافريقية خلال مختلف الحقب زودوني كذلك بالكثير من المعلومات النافعة. وانني نقبت عن عدد وفير منها، كما يمكن رؤية ذلك في ثبت المؤلفين المذكورين الذين سالحقهم بهذه المقدمة .

ورغم ذلك فما اكثر ما وقعت في حيرة من جهة رسم الكلمات الخاطىء المتعسف . بحيث انني اضطررت الى طرح الكثير من الكلمات التي عرضت نفسها علي . لقد كتبت ملاحظات عنها في دفتر اودعته لدى المكتبة ، ولعله ما يزال مفيدا للاخرين . ومع ذلك تبدو هذه الكلمات بصورة جزئية وكانها منسوبة الى لغات اخرى .

وادرجت في عملي كذلك معظم الملاحظات القاموسيةوالمسردية التي اضافها العلماء الاوروبيون الى المؤلفين الذين نشروهم او ترجموهم ، ومن بينها ملاحظات كاترير ومسارد دي خويه التي تقف في الطليعة . وان جمع هذه الملاحظات المتناثرة في كتب من مختلف الانماط وتنسيقها كان كما اظن عملا مفيدا ومستوجبا للتقدير .

اما انني في بعض الاحيان لم اورد بعض مواد المعاجم ، فذلك لانني لا استحسنها ، ولانني لا اراها ضرورية للغاية ، او لان لين اوضح هذه الكلمات ايضاحا كافيا ، عدا اخطاء السهو طبعا ، ولكنني اؤمل ان ستكون قليلة العدد .

ان مصادري الرئيسية مع ذلك كانت المؤلفين العرب في العصر الوسيط الذين قراتهم ، سواء في النصوص المطبوعة ، او في مخطوطات تعود لمكتبات اوروبة الرئيسية ، والتي تعالج مواضيع غاية في التنوع . وهكذا جردت بصورة اصولية من بين المؤرخين وكتاب السير : محمد بن الحارث ، ابن القوطية ، الاخبار المجموعة ، ابن حيان ، المطمح وقلائد الفتح ، عبدالواحد المراكشي ، ابن الابار ، ابن صاحب الصلات ، البيان المغرب ، ابن عبدالملك المراكشي ، رياض النفوس ، المؤرخ المجهول الموجود في مخطوطة كوبنهاكن ، عدة مجلدات من كتاب ابن خلدون العظيم، القرطاس ، الحلل الموشية ، تاريخ بني زيان في تلمسان ، ابن

---

(١٤) لقد أهديت مع دخويه هذه النسخة الى مكتبة جامعتنا .

الخطيب ، المقري ، تاريخ تونس لابن باجي ، النويري (افريقية واسبانية) ، الفخري ، مقتبسات من تاريخ حلب نشرها فريتاك ومقتبسات من تاريخ اليمن نشرها رنيرس . ومن الجغرافيين والرحالين : البكري ، ابن جبر ، العبدري ، ابن بطوطة . ومن ناحية الوثائق : منشورات غريفوريو ، دى ساسي ، رينو ، اماري . ومن جهة الامثال والحكايات والقصص ، حكايات بيدبا ، تاريخ باسم الحداد ، الف ليلة وليلة في مختلف الطبعات التي ظهرت على تنوع تحريرها ، بحيث انها تصلح شروحا لبعضها على بعض ، ثم بين علماء النبات : الكتاب المعنون المستعيني وابن البيطار . والكتاب العظيم عن الزراعة لابن العوام . ومن بين الاطباء : المسرد المخطوط لمنصور الرازي ، ابن وافد ، ابن الجوزي ، شكوري . ومن بين كتب الفقه : الكباب والاقرباذين . وكتاب العقود الذي تتملكه مكتبتنا . اما الكتب والمجاميع المتفرقة فهي : كتاب الاغاني الجزء الذي نشره كوزكارتن ، كتاب الثعالبي ، نشر احدهما فالتن ونشر الاخر يونك ، ابن بدرون . تقويم قرطبة لعام ٩٦١ ، مجاميع فيرس ، هو كفليت ، مورسنج ، اماري ، موللر ، مقتطفات سيلفستر دي ساسي ، مقتطفات كوزكارتن ، كتابا مقتطفات لفريتاك ، مجلة الشرق والجزائر ، جورنال آزياتيك الفرنسية وجورنال آزياتيك الالمانية ، القديمة والجديدة ، مجموعة تضم اكثر من مائة وسبعين مجلدا لهذه المجلات الموسمية الثلاث . واستفدت جزئيا من كتب كثيرة اخرى . والقائمة التي تجدونها بعيدا تعطي هذا الموضوع توضيحات ضرورية . ولم ادرج فيها بعض الملاحظات التي ذكرتها نادرا وبصورة واضحة بكفاية .

ومقابل ذلك اشرت كثيرا الى كافة قصص الرحالين الاوروبيين التي استعنت بها ، ذلك لانني اردت ان اوفر على الذين يسلكون هذا السبيل عناء استشارتها من جديد . وللعلة ذاتها اضفت الى قائمتي مستدركا يحتوي على عناوين القصص التي تصفحتها عبثا . وقد اغنى بعض اصدقائي من العلماء مجهودي بمساهماتهم المهمة . فرايت (من كمبردج) اعارني ملاحظاته المعجمية المنتزعة بصورة رئيسية من دواوين الهذليين ، ومن ديوان امرىء القيس ، ومن الكامل للمبرد ، ومن المفصل ، ومن ابي الوليد ، ومن ترجمة المزامير من قبل Saadiah (الشدياق ؟) ومن القاموس السرياني لباين سميث Payne Smith ، ومن بار على Bar Ali ومن محفوظات (ارشيفات) مركس Merx . وكلها كان لي نافعا . ولكن اهمها بالنسبة لي تلك المستعارة من ابي الوليد . هذا المؤلف شديد الاهمية من ناحية اللهجة العربية الاسبانية . ولكن من جهة اخرى لا اعرف ان كانت ستتوفر لدي الشجاعة لدراسة معجمه العبري من الفه الى يائه ، ورايت الذي قرأ الطبعة المعتنى بها بافراط والتي قام بنشرها نيبور Neubauer ، أدى الي خدمة جليلة بعرضه علي ملاحظاته فور علمه باحتمال جدواها الموضوعي وسروري بها . اما الحواشي العربية لمؤلفها بار علي وللمحشين الاخرين لدى باين سميث فانها لفته خاصة Sui generis وان دراستها ليست حتى الان الا في طور التخطيط ، والاخطاء العديدة في المخطوطات تجعلها صعبة لا يوثق بها .

اذن ينبغي استعمال ما يحتوي منها كتابي باحتراس وحذر.

علي كذلك التزامات تجاه سيمونيه ، استاذ اللغة العربية في غرناطة . فقد اطلعني على مقتبسات ثمينة مستلة من كتاب بالغ الغرابة عن الزراعة لمؤلفه Ibn-Loyon كما اعارني عدة مخطوطات من مكتبة الاسكوريال او من مكتبات اخرى اسبانية (جميع الشواهد من هذا الفرع التي ستشهد بها هي له) ، ومثلها الكثير من الشذرات التي وجدها في المحفوظات العربية ببلاده . وعلاوة على ذلك فانه كان يتفحني بموافية بالاضواء الكاشفة المسلطة على اشتقاق الكلمات ، وهي غالبا من الكلمات التي اكل الدهر عليها وشرب . تلك التي استعارها العرب من اللهجات الرومانية من شبه جزيرة ايبريا الاسبانية . وقد صنف هو نفسه سفرا نفيسا عن هذا الموضوع ، سفر اتلطف بارسال اوراقه الي فور خروجها من المطبعة . ولكن لسوء الحظ لم يطبع منها حتى الان الا ثلاث حروف ، وقد توقف الطبع فيه في السنوات الاخيرة لانعدام الصرف ، ذلك لان الكتاب كان يطبع على نفقة الحكومة ، ونحن نعرف ان اموال الدولة ليست هي الجانب اللامع في اسبانية . ومع ذلك فان كتابي لم يتأثر بهذا الظرف ، الظرف المؤسف كل المؤسف على كل حال ، لان سيمونيه كلما وجهت اليه اسئلة (وهذا ما حدث في معظم الاحيان) اسرع فاغدق علي المعلومات التي كنت ارغب في الحصول عليها .

اما صديقي القديم اماري الممتاز ، فانه لم يشأ ان يظل في المؤخرة . اذ بوساطته توصلت الى استعارة مخطوطة المستعيني الفاخرة التي تتملكها مكتبة نابولي ، والتي استطعت ان انسخ منها في فلورنسة مسرد باني Pagni . وبالاضافة الى ذلك وضع تحت تصرفي الملاحظات التي استعارها من بعض الوثائق العربية الصقلية التي اوصل صورها اليه كوزا الاستاذ في جزيرة بالرمو وهو الذي نشرها بعد ذلك في مجموعته العظيمة . واسف على كون هذه المجموعة التي تحمل تاريخ عام ١٨٦٨ قد وصلت الي في اونة كان تدبيج كتابي يستغرق كل وقتي بحيث انني لم استطع الاستفادة منها . اسف لان طبع هذه المجموعة بدأ ولكنه لم ينته الا بعد انقضاء ست سنوات .

ومن بين اسماء العلماء الاخرين الذين ساهموا في جعل مجموعتي اكثر اهلية لاستحقاق استحسان القراء المستنيرين هو اسم دخويه الذي يتلألأ اقل ما يتلألأ من جهة الاستئهال . ان صديقي الحميم هذا يفكر بالقول المأثور : « الفقير كثير التعداد لاغنام قطيعه » . وهو في حبه لتادية خدمات في الخفاء وطي الكتمان اراد هذا الخفاء وذلك الكتمان مرة اخرى . ولكن الحقيقة ترغمني على القول بان الصداقة الصميمة التي تربط بين قلبينا منذ سنين طويلة كنت انعم خلالها زيادة فوق زيادة سعة معارفه وكذلك سعة نبل خلقه. ان هذه الصداقة وفرت لهذا الكتاب احمد النتائج . فكم من مادة لم تطبع الا بعد ان ناقشناها نقاشا طويلا ، وكم من شواهد وشواهد استقيتها منه ، لا سيما تلك التي وقع عليها لدى ياقوت وفي كتاب الاغاني ، طبعة بولاق !

وارى قبل الانتهاء ان هناك بعض الملاحظات الضرورية .

لم اتقبل من الكلمات الاجنبية الا تلك التي منحها العرب الجنسية . معنى ذلك انني استبعدت عدة كلمات يونانية مذكورة لدى ابن البيطار او لدى الاخرين ، كما طردت الكلمات التي استشهد بها الرحالون ولا سيما ابن بطوطة بوصفها منسوبة الى السنة مختلفة . ويخيل الي انني حسنا فعلت . واذ يروي سائح فرنسي ان الالمان يسمون نجارا زيمرمان Zimmermann فلن يرتاي الفرنسيون ان اخلي موضعا لهذه الكلمة في قاموس باللغة الفرنسية . هذه الملاحظة كان لابد لها ان تلاحظ لئلا يتوجه الي المتوجهون بتانيبات ظالمة . ولكنني اعترف ان التمييز احيانا عسير . فمن الممكن انني طرحت جانبا مصطلحات كان لها في الواقع حق المواطنة ، على الاقل في فترة من الفترات وفي بعض

الاقطار ، وانني تقبلت مصطلحات اخرى كان يجب علي ان احذفها . ولكن تقدم العلم سيغيء الدرب امامنا في هذا النطاق .

لقد اشرت ، لو استطعت ، الى اصل الكلمات الاجنبية . ولكن هذه دراسة مستقلة لم استطع ان اكرس لها العناية اللازمة لو اردت خوضها . وعزائي انني حين افكر ان المعاجم في اللغة الفصحى نفسها ، التي سبق لها ان تضمنت الكثير من المصطلحات اللا عربية المنشا ، اقول ان هذه المعاجم لم تحتو الا على الاقل من القليل في هذا الخصوص .

اما بشان مصطلحات علم النبات ، فان كتابي ، واجرؤ على قول ذلك ، هو غني هنا كل الغنى . ولكن بالرغم من مساعفة سفر دودونيئوس Dodonaeus الى القديم ومساعدة التوضيحات التي اتحفني بها بين حين واخر عالم نباتي حديث معروف في الاوساط الخاصة ، هو الدكتور تروب Treub فانني لا اجسر على اطراء نفسي بالامل بانني تجنبت الاخطاء دائما . ذلك لان الشرقيين انفسهم يخلطون في معظم الاحايين بين النباتات المختلفة . فهم يطبقون ، في مختلف الاخطار ، الكلمة نفسها على عدة نباتات ليس لها اي صلة فيما بينها . وحين لا يكون الباحث عالم نبات ، فمن الصعوبة فهمها وتصليحها واحيانا من الاستحالة بمكان .

وفي مجموعة لها هذه الطبيعة لا يمكن توقع رؤية قوانين النحو العربي دائمة الاحترام . فهناك عدة صيغ (مثلا صيغة المصغر في الاسم الرباعي ، حيث الحرف الاخير دوما a وليس i في كتب المفردات الاسبانية) وهناك بضعة نصوص تعود نوعا ما للهجة العامية . فتركتها على حالتها . لان تحويرها يدخل في باب التقعر اللغوي . لقد حذفت بعض الصيغ عندما وجدتها لا يميزها شيء ، فجمع المؤنث السالم يكون بالتاء المربوطة والمصغرات والمقارنات واسماء الوحدة بل احيانا كذلك الصفات التي نهايتها (ان) وبعض اسماء الحرف المصوغة من الجمع (كالبراميلي من براميل وهي جمع برميل) والصيغة الثانية للفعل المستعمل بمعنى الصيغة الرابعة ، والصيغة السابعة المستعملة مبنية للمجهول من الصيغة الاولى . وهذه مسالة اصولية جارية في اللغة العصرية .

وعلى العموم فانني لم اورد فقرات ولا مواد من مسارد قديمة كانت في تعليقات المستشرقين ومساردهم، وهم المستشرقون الذين احلت عليهم .

وقد صححت بين الفينة والفينة فريتاك، ولكني كنت اصاب بالقرف حين يطول التصحيح . وبخصوص « حماسته » كما قال مستشرق الماني وهو يعلن وفاة فريتاك « ينبغي ان نغتفر له قاموسه العربي وكتابه الامثال للميداني » . وبصورة جزئية فان قاموس لين احال هذا الجهد العقيم نسيا منسيا .

وغالبا ما نصادف في النصوص المطبوعة كلمات نبحث عنها عبثا في كتابي ، لانني لم انقلها ، وذلك لانها لم توجد اصلا . وقد ادركني التذبذب في بعض الاحيان فعمدت الى تقييد هذه الاخطاء لغرض تصحيحها ، ولكني اضطررت الى التخلي عنها ، لان عددها كان فادح الكثرة ، فلم الجأ الى هذا الاجراء الا بصورة استثنائية .

اما عن الايجاز فانني اشرت الى ابنية الافعال ، الخ .. بالاختصارات اللاتينية التي يعرفها كل احد في المعاجم العربية اللاتينية .

واما المصطلحات المركبة فيجب ان يجري البحث عنها مقابل الكلمة الاولى . بعضها في العدد الاقل تكون مع ذاك مقابل الكلمة الثانية .

لقد ملاني انجاز جهدي معرفة . كان مجهودا طويلا ، اذ توشك كافة الشواهد على وجه التقريب ان يكون جهادي معها منذ اربعين سنة . لانني تناولتها كلها بالتحقيق . ولو انني توقعت ان يكلفني التحرير وحده ثماني سنوات من العمل الدؤوب ربما كنت ترددت في الشروع به . بالاضافة الى ذلك كان ثمة زمان آخر وقعت فيه نضوا طليحا سقيما، فخشيت عدم استطاعة بلوغ نهاية الشوط في هذه الحلبة . ولكن شكرا لله وحمدا ، فهذا الفرع لم يكن قائما على اساس لان الحياة والقوى لم تزايلني . واستطيع ان اقول لنفسي الان ان مجهودي ، مهما كان ناقصا معيبا ، فانه رغم ذلك سيدخل علم المعاجم في طريق جديدة . كان هذا حلم شبابي ، وباكورة اعمالي برهان على ذلك، وانها لقرة عين لنفسي رؤية تحقيق هذه الرؤيا .